الدرس السابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صل الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن ابن ناصر السعدي – رحمه الله تعالى – يقول:في كتابه القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن "القاعدة الثانية والعشرون " في مقاصد أمثلة القرآن :

اعلم أن القرآن الكريم احتوى على أعلى وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع فقد احتوى على أحسن طرق التعليم وايصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه فمن أنواع تعاليمه العالية ضرب الأمثال وهذا النوع يذكره الباري في الأمور المهمة كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحالة أهله والأعمال العامة الجليلة، ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة وتمثيلها بالأمور المحسوسة ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي عين ، وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه فقد مثل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات : الغيث والمطر النازل من السماء وقلوب الناس بالأراضي والأودية ، وأن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأراضي :

–فمنها أراضٍ طيبة تقبل الماء وتنبت الكلئ والعشب الكثير كمثل القلوب الفاهمة التي تفهم عن الله ورسوله وحيه وكلامه وتعقله وتعمل به علماً وتعليماً بحسب حالها كالأراضي بحسب حالها

–ومنها أراضٍ تمسك الماء ولا تنبت الكلئ فينتفع الناس بالماء الذي تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأراضيهم كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة وتلقيه إلى الأمة ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة بمعانيه ماعند الأولين ، وهؤلاء على خير ولكنهم دون أولئك .

–ومنها أراضٍ لاتمسك ماءًا ولا تنبت كلئا كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي لاعلم ولا حفظاً ولا عملًا

ومناسبة الأراضي للقلوب كما ترى في غاية الظهور

وأما مناسبة تشبيه الوحي بالغيث فكذلك؛ لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية

والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية

هذه القاعدة الثانية والعشرون من القواعد الحسان للعلامة عبد الرحمن ابن ناصر السعدي رحمه الله وغفر له قال: في مقاصد أمثلة القرآن :

"القرآن "ضرب الله – تبارك وتعالى – فيه لعباده أمثلة عديدة وعظم – سبحانه وتعالى – شأن الأمثال ودعى عباده إلى عقلها وتدبرها وفهم معانيها وقال – جل وعز – : (وَتِلكَ الأَمثالُ نَضرِبُها لِلنّاسِ وَما يَعقِلُها إِلَّا العالِمونَ)

كان بعض السلف إذا قرأ مثلاً من أمثال القرآن ولم يفهم معناه يبكي ويقول: **لست من العالمين**؛ لأن الله – جل وعلا – يقول :

" وَما يَعقِلُها إِلَّا العالِمونَ"

وهذا فيه تنبيه للعباد ولمن يقرأ كتاب الله – سبحانه وتعالى – إلى:

أهمية عقل الأمثال وفهم معانيها وتدبرها؛ لأنها أمثالٌ مضروبة لبيان أعظم المقاصد وأجل الغايات، والقرآن في ضرب الأمثال جاء على مهمات الدين وأصول الإيمان مبينًا لها غاية البيان،

- فوضح – جل وعلا – الأمثال التوحيد وحقيقته
- ووضح – تبارك وتعالى – بالأمثال الشرك وحقيقته وعِظم خطره على أهله
- ووضح بالأمثال حال الموحدين أهل الإيمان
- ووضح بالأمثال حال المشركين
- ووضح بالأمثال مكانة الوحي وعِظم أثره على القلوب المؤمنة
- ووضح بالأمثال حال الناس مع الوحي وأنهم كالأودية أو كالأراضي والأودية والأراضي متفاوتة من حيث انتفاعها بالمطر واستفادتها منه
- فالقرآن فيه أمثال كثيرة جدًا – فيه كما يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – ما يربو عن الأربعين – كلها في بيان: الإيمان والتوحيد وحقيقة التوحيد والموحد وحقيقة الشرك والمشرك وأيضًا مكانة الوحي

- وهذه مقاصد الأمثال في القرآن بيان الأمور العظيمة وتجليتها للناس وجعل الأمور المعنوية بمثابة الأمور المشاهدة المحسوسة، وهذه فائدة المثل المثل يضرب ليجعل الأمر المعنوي بمثابة الأمر الملموس المحسوس المشاهد ، ولهذا تضرب الأمثال لبيان الأمور المعنوية بأن تُشّبه بأمور مشاهدة – يراها الناس– مثل ما سيأتي معنا قريبًا تمثيل الإيمان بالشجرة (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مثلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) [سورة إبراهيم ٢٤]

كأنه في هذا المثل يقول :إن أردت أن تعرف الإيمان انظر إلى الشجرة بأصولها بفروعها بثمارها ،هذا شيء أمامك تراه وتنظر إليه بعينيك ،

هو يوضح لك الإيمان؛ لأن الإيمان بمثابة الشجرة فإذاً هذه فائدة المثل، المثل فائدته عظيمة ومكانته عليّه في باب العلم والتعليم؛ لأنه يجعل

الأمر المعنوي بمثابة الشيء المشاهد المحسوس فيتضح الأمر ، ولهذا الأمثال التي في القرآن ليست شيئا معقدًا أو كلامًا غامضًا بل هو باب رفيع في التعليم وعالي جدًا في التوضيح والبيان وتجلية الأمور ولأجلها كان بعض السلف يبكي يقول: لست من العالمين؛ لأنها أمثال مضروبة توضح لك اشياء معنوية فإذا كان الإنسان لم يستفد من هذه الامثال فكيف تكون استفادته؟!

ولهذا ينبغي على المسلم أن يحرص على الاستفادة من الأمثال المضروبة في القرآن وفي القرآن ما يربو على الأربعين مثل قال قتادة – رحمه الله تعالى – : (**اعقلوا عن الله الأمثال**)

يعني إذا مر عليك مثل في القرآن الكريم فعقله أي كن عاقلًا لمعناه فاهمًا لمقصوده ودلالاته ومراده حتى تتضح لك أمور الإيمان وحقائق التوحيد وأيضا الأمور المضادة للإيمان و التوحيد من الكفر والشرك بالله والنفاق وحال المنافقين

فالقرآن الكريم فيه أمثال عظيمة جدًا ضربها الله – سبحانه وتعالى – تبصرة للعباد وذكرى للذاكرين وهكذا في سنة النبي – عليه الصلاة والسلام – جاء عنه أحاديث عديدة ضرب فيه الأمثال؛ الأمثال التعليمية التي يقصد بها البيان والتوضيح ، فجاء عنه – عليه الصلاة والسلام – أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما ضرب بها – عليه الصلاة والسلام – الأمثال التعليمية التوضيحية، وبعض أهل العلم أفردوا الأحاديث الخاصة بالأمثال في كتب خاصة طبعت وافردت بعنوان الأمثال؛ –الأمثال النبوية –

فهذا بابٌ شريف من العلم، وباب عظيم من أبواب الخير ينبغي على المسلم أن يعنى به، وكثيرًا ما يأتي في بدأ المثل المضروب في القرآن أو في منتهاه؛ التأكيد على العناية به مثل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيفَ ضَرَبَ اللَّهُ مثلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصلُها ثابِتٌ وَفَرعُها فِي السَّماءِ* تُؤتِي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بِإِذنِ رَبِّها وَيَضرِبُ اللَّهُ الأَمثالَ لِلنّاسِ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرونَ﴾[إبراهيم:٢٤- ٢٥]

فهذا فيه التأكيد على العناية بالمثل والاهتمام وأن فائدة ضرب المثل تذكر العباد وعقلهم لمعاني القرآن الكريم ولمهماته ولجانب التوحيد الذي هو المقصود الأعظم والغاية الكبرى من إنزال الوحي، ولهذا أكثر الأمثال التي في القرآن هي في التوحيد أكثر الأمثال المضروبة في القرآن هي:

في التوحيد – في بيانه أو في التحذير من ضده – ،

أو في بيان أهله أو في بيان أهل المخالفين له،

وهذا مما يبين لنا أن التوحيد أعظم شيء في القرآن؛ ويدل على أن التوحيد أعظم شيء في القرآن دلائل كثيرة منها أن أكثر الأمثال المضروبة في القرآن ضربت لبيان التوحيد.

بدأ الشيخ –رحمة الله عليه– هذه القاعدة في بيان مكانة القرآن العظيم في العلم والتعليم، وأنه كتاب هداية وكتاب علم وكتاب تعليم، وأودع الله – سبحانه وتعالى – فيه من الحجج العظيمة والبراهين الساطعة والدلائل البينة ما يجلّي الحقائق أتمّ تجلية ويبينها أحسن بيان، وتنوعت دلائل القرآن وبراهينه ولهذا يقول: (احتوى على أحسن طرق التعاليم– يعني القرآن–وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه فمن أنواع تعاليمه العالية ضرب الأمثال)

إذًا كتاب الله – عز وجل – اشتمل على أحسن التعليم بطرائق عديدة وأساليب متنوعة ؛ ومن طرائق القرآن وأساليبه في التعليم ضرب الأمثال

قال:(وهذا النوع –يعني الأمثال– يذكره الباري في الأمور المهمة)

يذكره الباري في الأمور المهمة : يعني في توضيح الأمور المهمة كالتوحيد والإيمان والتحذير من ضده

قال: (كالتوحيد وحالة الموحد والشرك وحالة أهله والأعمال العامة الجليلة)

وكل ذلك سيأتي عليه بعض الأمثلة عند الشيخ – رحمه الله تعالى – .

قال:(ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة وتمثيلها بالأمور المحسوسة ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي العين)

وهذا فيه فائدة في ضرب المثل ،وأن المثل فائدته أن يجعل الأمور المعنوية

بمثابة الأمور المحسوسة كأنك تراها بعينك،

المثل فائدته : أن يجعل لك الأمر المعنوي كالأمر المشاهد، فهذه فائدة الأمثال.. قال:(يقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة وتمثيلها بالأمور المحسوسة ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي عين، وهذا من عناية الباري بعباده ، ولطفه – سبحانه وتعالى –

أي ؛ أنه ضرب هذه الأمثال عناية منه – سبحانه وتعالى – ، ولطفا بالعباد ، ثم بدأ – رحمه الله تعالى – بضرب بعض الأمثلة أو ذكر بعض أمثال القرآن .

فذكر **أولا** ؛ مثلاً ضربه الله – سبحانه وتعالى – في كتابه لبيان الوحي ، الذي أنزله الله – سبحانه وتعالى – على عباده ، هداية لهم ﴿نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأَمينُ (١٩٣) عَلى قَلبِكَ لِتَكونَ مِنَ المنذِرينَ (١٩٤) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبين (١٩٥) ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤ -١٩٥]

فالله – جل وعلا – ؛ في القرآن في مواضع عديدة ضرب أمثالا تبين الوحي ، وأن الوحي مثله مثل المطر ، والقلوب التي يصل إليها الوحي مثلها مثل الأراضي ، والأودية ، وإذا نظرت إلى الأراضي ما مدى استفادتها من الأمطار التي تنزل عليها؟

هل استفادتها منها واحدة أو متفاوتة ؟

تجد أن الأمطار تنزل وتهطل بكثافة ، ثم تأتي إلى بعض الأراضي بعد المطر بيوم ، أو يومين لا ترى فيها ماءا ، ولا ترى فيها نباتا ، وتجد بعض الأراضي ؛ إذا نزل الماء حفظته ، وأصبحت للماء كالوعاء ، فيستفيد الناس ، ويرده الناس ، وترده الماشية ، وتجد أراضي تستفيد هي من الماء عشبا ونباتا ، وكلأ ، ويستفيد منها الناس ، فليست الأراضي مع المطر على حالة واحدة ؛ بل الأراضي مع المطر متفاوتة .

والأمر تماما في حال القلوب مع الوحي ، فالوحي شأنه كشأن المطر ، والقلوب شأنها كشأن الأراضي.

وكما أن الأراضي متفاوتة في استفادتها من الماء قلة وكثرة ، وجودا ، وعدما ؛ فإن القلوب كذلك متفاوتة في استفادتها من الوحي قلة ، وكثرة وجودا ، وعدما.

ولهذا تجد في القرآن ؛ أمثالا توضح الوحي بضرب المثل عليه بالمطر ، وأن شأن الوحي كشأن المطر .

ثم تأتي هذه الأمثلة مبينة حال الناس مع هذا الوحي وأنهم ينقسمون إلى أقسام في سورة الرعد ضرب الله – سبحانه وتعالى – هذا المثل لبيان حال أهل الإيمان مع الوحي: قال – جل وعز – : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَت أَودِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحتَمَلَ السَّيلُ زَبَدًا رابِيًا وَمِمّا يوقِدونَ عَلَيهِ فِي النّارِ ابتِغاءَ حِليَةٍ أَو مَتاعٍ زَبَدٌ مِثلُهُ كَذلِكَ يَضرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذهَبُ جُفاءً وَأَمّا ما يَنفَعُ النّاسَ فَيَمكُثُ فِي الأَرضِ كَذلِكَ يَضرِبُ اللَّهُ الأَمثالَ (١٧)لِلَّذينَ استَجابوا لِرَبِّهِمُ الحُسنى وَالَّذينَ لَم يَستَجيبوا لَهُ لَو أَنَّ لَهُم ما فِي الأَرضِ جَميعًا وَمِثلَهُ مَعَهُ لَافتَدَوا بِهِ أُولئِكَ لَهُم سوءُ الحِسابِ وَمَأواهُم جَهَنَّمُ وَبِئسَ المِهادُ (١٨)﴾[الرعد:١٧ -١٨]

فهنا ضرب الله – جل وعلا – مثلاً للوحي بالمطر ، وبيّن حال أهل الإيمان على تفاوتهم في الإستفادة من الوحي ، فقال – جل وعز – : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَت أَودِيَةٌ بِقَدَرِها ﴾

عندما ينزل المطر احتمال الأودية لماء المطر متفاوتا:

- منها أودية كبيرة تستوعب ماء كثيرا
- ومنها أودية صغيرة لا تستوعب إلا ماء قليلا

وهكذا الشأن في القلوب إذا وصل إليها الوحي :

- هناك قلوب كبيرة تستوعب الوحي وتعقل المعاني وتحفظ وتفهم وتستنبط إلى آخر ذلك ..
- وهناك قلوب صغيرة

الذي يصل إلى هذا القلب هو نفس الذي يصل إلى هذا القلب لكن القلب نفسه متفاوت . هناك قلوب كبيرة تستوعب وتستنبط وتفهم وتعقل ، وهناك قلوب صغيرة

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] فهذا مثل مائي،

ثم ذكر – جل وعلا – أيضا لأهل الإيمان مثلاً نارياً قال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ [الرعد: ١٧]

الآن عندما يريد صاحب الذهب أن يصفيه أو أن ينقيه يجعله فوق النار ويبدأ يصليه بالنار حتى يذهب الزَبَد وما لا فائدة فيه ويبقى المستفاد منه وهو الجوهر والذهب والمعادن التي يُنتفع بها ،وما سوى ذلك يذهب

أيضا إذا سالت الأودية بالماء؛ الأودية فيها غثاء وفيها ما لا فائدة فيه فإذا جاء الماء واستوعب الوادي ومشى فيه أخذ يقذف بالزبد على جنبتيه، ولهذا يقول العلماء: الزبد هنا في المثل المائي، والمثل الناري هو يبين حال الشبهات والشهوات التي تكون في قلوب الناس،

وأن الله – سبحانه وتعالى – إذا أراد بعبده خيرا وجاء الوحي واستقر في قلبه فإن استقرار الوحي في قلبه وتمكنه في نفسه وثباته فيه يطرد عنه بإذن الله – تبارك وتعالى – هذا الزبد؛ زبد الشبهات وزبد الشهوات، فيطردها ولا يبقى لها وجود في القلب ،

وكلما قوي حظ القلب من الوحي عظمت استفادته منه وقل وجود الشبهات والشهوات في قلبه،

قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهكذا الشأن في حال المؤمن الموحد الذي أكرمه الله – سبحانه وتعالى – بالوحي والإيمان ونوره واستقرار ذلك في قلبه، هذا يمكث بإذن الله إذا شاء الله له ثباتا على الإيمان ، ويطرد عنه زبد الشبهات وزبد الشهوات، ويستقر ويمكث في قلبه هذا الوحي الذي به سعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة،

قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾

فعبد الله المؤمن الذي يكرمه الله – سبحانه وتعالى – باستقرار هذا الوحي في قلبه وانتفاعه به بإذن الله – جل وعلا – يطرد عنه زبد الشهوات وزبد الشبهات ويذهبها عن قلبه ويبقى في قلبه ما ينتفع به قلبه هذا في المثلين؛ المائي والناري ، وكلاهما ضرب في هذه الآية لبيان حال المؤمن.

وقد ضرب الله – سبحانه وتعالى – هذين المثلين؛ المثل المائي والمثل الناري لبيان حال المنافق، وأنه لا يستفيد من الوحي ولهذا لما ذكر الله المنافقين في أوائل سورة البقرة وذكر بعض أوصافهم ضرب مثلاً مائياً،

ومثلاً نارياً لبيان حالهم مع الوحي: قال: { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا } من أجل أن يستفيد منها وأن ينتفع، { فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ○ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } فهذا حالهم مع المثل الناري؛ لا يستفيدون من نور الوحي، لا يستفيدون من نور الوحي، ولهذا قال: {ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } ولم يقُل: ((ذهب بنارهم)) ؛ لأنه ذهب عنهم الإضاءة وبقي عليهم الإحراق.

قال: { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ○ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } هذا مثلٌ ناريّ.

ثم ذكر المثل المائي المبيّن لحالهم: قال: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ }

فهذه حالهم مع الوحي؛ أنهم لا يستفيدون منه، وإذا جاءتهم آيات الوحي وما فيه من القوارع وما فيه من الزّواجر وما فيه من التّهديد وما فيه من الوعيد، إذا جاءتهم هذه الآيات حالُهم معها { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم}.{ مِّنَ الصَّوَاعِقِ } : يعني حالهم مع الصواعق التي تكون مع المطر هي حالهم مع الصواعق التي تكون في القرآن؛ القرآن فيه قوارع، فيه زواجر، وفيه مواعظ وفيه موقِظات للقلوب، فهؤلاء لا ينتفعون بها { جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ } فلا يستفيدون ولا ينتفعون بخلاف أهل الإيمان الذين يكرمهم الله – سبحانه وتعالى – بأن يستقرّ الوحي في قلوبهم فيستفيدون منه وينتفعون على تفاوُتٍ بينهم في ذلك، وهم فيه على ثلاث درجات؛

أهل الإيمان في حالهم مع الوحي على ثلاث درجات بيَّنها في قوله – سبحانه وتعالى – : { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ } فهم فيه على هذه الدّرجات:

- درجة السّابق بالخيرات.
- ودرجة المقتصِد.
- ودرجة الظّالم لنفسِه فيما دون الكُفر والشّرك بالله – سبحانه وتعالى – .

قال رحمه الله: " فقد مثَّل الله الوحيَ والعِلم الذي أنزله على رسوله في عِدّةِ آيات بالغَيْثِ والمطر النَّازِل من السّماء "

وأشرتُ إلى بعض الأمثلة التي وردت في القرآن ضاربة للناس هذا المثل.

"مثَّل الله الوحي والعِلم الذي أنزله على رسوله في عِدّةِ آيات بالغَيْثِ والمطر النَّازِل من السّماء، وقلوبَ الناس بالأراضي والأودية "؛

أي: ومثّل قلوب الناس بالأراضي والأودية. " وأنّ عملَ الوحي والعلم في القلوب كَعَمل الغيث والمطر في الأراضي. "

ثم ذَكَرَ أنها على أقسام، وبَيْن هذه الأقسام التي ذَكر نذكُرُ الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إنَّ مَثَلَ ما بَعَثَني الله به من الهُدَى والعِلم كَمَثَلَ غَيْثٍ أَصَاب أَرْضاً فكَانَت منْها طَائِفَةٌ طَيبَةٌ " هذا لفظُ مسلم، ولفظُ البخاري: " طائفة نقِيَّة " أو " أرضًا نقِيَّة " ..

وهذا وصفٌ للقلوب التي تستفيد من الوحي أعظمَ فائدة؛ النَّقاء والطِّيب، النَّقاء والطِّيب، وأُعرِّج على هذين المعنَيين قريبًا،

قال: " منها طَائِفَةٌ طَيبَةٌ، قبِلَتِ الْمَاءَ فأَنْبَتتِ الْكلأَ والْعُشْبَ الْكَثِيرَ ":

الكَلَأُ والعُشب كُلُّه نبات، لكن النبات إذا جَفَّ ويَبُسَ يقال له " عُشب " ،وإذا كان طرِيًّا أخضر يقال له: "كلأ"

قال : أنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب والأرض

الجدباء هي التي تمسك الماء وتحفظ الماء ، هذا شأنها ولكنها لا تنبت العشب .

قال : وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله به الناس فشربوا منها وسقَوْا ورعوْا ، وأصاب طائفة – أي طائفة أخرى من الأراضي – إنما هي قيعان – والأرض القاع لا تمسك الماء ولاتنبت العشب –

إنما هي قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا" .

فهذا حديث عظيم جدا ينبغي على المسلم أن يقف على هذه الأقسام الثلاثة في هذه الأمثال المضروبة . والنبي صلى الله عليه وسلم جعل حال القلوب في استفادتها من الوحي كحال الأراضي في استفادتها من المطر .

قال : وكما أن الأراضي في استفادتها من المطر على ثلاثة أقسام ،

- قسم أراضٍ طيبة نقية .

طيبة: أي مستعدة للإستفادة من الماء ولإخراج النبات .

ونقية : من الدواخل التي تشوب الأراضي فتسقمها وتمرضها وتضرها وتقلل نباتها .

وهكذا الشأن في القلوب التي يريد الله – سبحانه وتعالى – الخير ، وهي القلوب التي كتب الله – عز وجل – الإستفادة من طيب الوحي ، ونقاها من أوضار الشرك وأوضار النفاق وأوضار المعاصي المهلكات .

فالشاهد أن النبي – عليه الصلاة والسلام – ضرب هذا المثل العظيم ، والشيخ بنى كلامه رحمه الله هنا على هذا الحديث .

قال : فمنها أراضي طيبة تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير ، كمثل القلوب الفاهمة التي تفهم عن الله ورسوله وحيه وكلامه وتعقله وعمل به علما وتعليما بحسب حالها كالأراضي بحسب حالها .

فهذا نوع من الأراضي ونوع من القلوب كتب الله – عز وجل – لها حظاً من العلم وحظاً من الفهم وحظاً من العمل ، على تفاوت بينها في ذلك ، وهذه خير القلوب .

- يليها في الرتبة قال : ومنها أراض تمسك الماء ، ولا تنبت الكلأ :

تمسك الماء : أي تحفظه للناس ، فيرد الناس عليه وترد عليه الماشية ويستفيدون منه ويأخذون منه لمواشيهم ولزروعهم .

قال : فينتفع الناس بالماء الذي تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأراضيهم : كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة وتلقيه إلى الأمة ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة بمعانيه ما عند الأولين . وهؤلاء على خير ولكنهم دون أولئك .

دل الحديث أن أهل الخير مع الوحي على رتبتين :

- رتبة هم أهل رواية ودراية .
- ورتبة أهل رواية ورعاية : يروون الأحاديث ويعتنون بها لكنهم ليس عندهم ذاك الحظ من الرواية بحيث يستنبط من الأحاديث المعاني والدلائل والحكم والأحكام ، فهمه وعقله يقصر عن ذلك .

ولهذا قال – عليه الصلاة والسلام – في حديث آخر : رب حامل فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه .

قد تذكر حديثا لشخص هو لا يحفظه وأنت تحفظه حفظا متقنا ثم يبدأ يقول لك: هذا الحديث يستفاد منه فوائد: الأولى الثانية الثالثة الرابعة الخامسة السادسة... يعدد لك فوائد وأنت تحفظ الحديث من وقت طويل ولا تدري أن فيه هذه الفوائد

رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه

رب حامل فقه إلى غير فقيه

نعم حفظك للحديث خير كثير ورعايتك للحديث خير كثير وكونك لا تتمكن من الاستنباط ولا يصل عقلك إلى الاستنباط فأنت على خير عظيم ما دمت صاحب عناية بالحديث ورعاية له فإذا ارتفع مكان الإنسان وقدره وزاد مع العناية بالحديث رواية ورعاية فأصبح من أهل الدراية بالحديث والفقه والعقل والاستنباط لمعانيه هذه رتبة أعلى لكن كل منهما على خير أهل الرواية والدراية وأهل الرواية والرعاية كلهم على خير، لكن الأولون أخيَر وأفضل وأعظم مكانة

لكن الطائفتين كلهم على خير من جعل النبي صلى الله عليه وسلم حالهم كحال الأرض الطيبة النقية

ومن جعل أيضا حالهم صلوات الله عليه وسلم كحال الأرض الأجادب التي تمسك الماء ولا تنبت الكلأ فكل من هؤلاء على خير

ثم ذكر المثل الآخر والحالة الثالثة قال: ومنها أراضي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي

كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي :يعني لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ :

- لا تمسك ماء : ليس أهل رواية
- ولاتنبت كلأ ليسوا أهل دراية

لا رواية ولا دراية والأولون تمسك الماء أهل رواية ورعاية للأحاديث

ولا تنبت كلأ: ليسوا أهل استنباط للأحاديث

والأولون أهل رواية ودراية

فإذا انقسموا الناس مع الوحي إلى ثلاثة أقسام :

- أهل رواية ودراية
- وأهل رواية ورعاية ليس عندهم دراية واستنباط للأحاديث
- والآخرون لا رواية ولا دراية قال ومنها أراضي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي لا علما ولا حفظا ولا عملا .

قال رحمه الله :ومناسبة الأراضي للقلوب كما ترى في غاية الظهور شيء واضح تماما من أراد أن ينظر إلى تفاوت الناس مع الوحي فلينظر إلى تفاوت الأراضي مع المطر عندما ينزل

قال : هذا أمر في غاية الظهور ، وأما مناسبة تشبيه الوحي بالغيث فكذلك في غاية الظهور؛ لأن الغيث في حياته الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم معنوية ، ولهذا تجد في بعض الأيات يصف الله – جل وعلا – الوحي بأنه روحا

قال: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا) :

وتأمل روحا ونورا ؛ لأن الوحي في القرآن ضرب له مثلان:

مثل مائي ومثل ناري

- ولهذا الذين لا يستفيدون من الوحي كالأموات في الظلمات
- والذين يستفيدون كالأحياء في الأنوار والأماكن المضيئات

ففرق بين ميت في مكان مظلم وبين حي في مكان مضيء، فرق بين ميت

في مكان مظلم وبين حي وفي مكان مضيء.

فهذان مثلاًن يبينان حال الناس مع الوحي؛ المثل المائي والمثل الناري،

قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] هذا المائي

كيف أن الماء تحيا به الزروع والماشية والناس وكذلك الوحي تحيا به القلوب،

والمثل الناري قال: ﴿وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

في سورة الحديد قال الله – عز وجل – : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ، اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦-١٧] انظر كلام الشيخ الآتي أو الذي مر قال:

ومناسبة الأراضي للقلوب كما ترى في غاية الظهور وأما مناسبة تشبيه الوحي بالغيث فكذلك؛ لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية،

والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية،

ولهذا لما ذكر الله – عز وجل – قسوة القلوب بسبب بعدها عن الوحي وطول أمدها عنه ضرب مثلاً توضيحيا قال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ما فائدة ذكر حياة الأرض بالماء بعد موتها عقب ذكره لقسوة القلوب ببعدها عن الوحي؟؛ أي كما أنه – سبحانه وتعالى – يحيي الأرض الميتة بالماء إذا أنزل الله عليها الماء ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] فكذلك القلب الميت إذا أراد الله – سبحانه وتعالى – حياته أنزل عليه الوحي فكانت حياته به ولهذا قال: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

وفي الآية الأخرى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢٤]

فالشاهد أن كما أن الأرض الميتة تحيا وتنبت وتهتز وتربو إذا أنزل الله عليها الأمطار فكذلك القلوب القاسية والقلوب الميتة إذا كتب الله – سبحانه وتعالى – لها حياة فأنزل عليها الوحي فكانت حياتها به،

فإذن هذا مثل عظيم جدا ضربه الله – سبحانه وتعالى – في القرآن، وضربه النبي – عليه الصلاة والسلام – في السنة وهو يبين مكانة الوحي وأنه مثل المطر ومكانة القلوب وأنها مثل الأراضي ومثل الأودية، والأودية والأراضي متفاوتة في انتفاعها من المطر وكذلك القلوب متفاوتة في استفادتها وانتفاعها من الوحي.

وكذلك مثل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥] فكذلك شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها معرفة وتصديقا وإيمانا وإرادة لموجبها و﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق الزكية والأعمال الصالحة والهدي المستقيم ونفع صاحبها وانتفاع الناس به وهي صاعدة إلى السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه.

ثم ذكر –رحمه الله تعالى– هذا المثل الذي ضربه الله – جل وعلا – في سورة إبراهيم قال – جل وعز – : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مثلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]

فهذا مثلٌ عظيمٌ ضَرَبَه الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة لبَيَان التوحيد وكلمةِ التوحيد وحالِ أهلِ الإيمان المستفيدين من هذه الكلمةِ العظيمة المنتفعين بها، وأنّ شأن الإيمان في قلوبِهم كشأن الشّجرة، ومن المعلوم أنّ الشّجرة لها أصلٌ ثابت في الأرض، لها عروقٌ ضاربةٌ في الأرض، ولها أصلٌ راسخ ، ولها فروع ولها ثِمار، وهكذا الشأن بالنّسبة للإيمان؛ الإيمان مثل الشّجرة:

الشّجرة لا بُدَّ لها من مكانٍ تنبُتُ فيه ولا تنبُت في كُلِّ أرض وكذلك الإيمان لا ينبُت في كلّ قلب إلا القلوب التي كتب الله هِدايَتَها والصُّدور التي شرحها الله – سبحانه وتعالى – للإيمان وقَبوله، ففي هذه القلوب تنبت شجرة الإيمان.

وأصول هذه الشّجرة مكانُها قلبُ المؤمن.

وفُروعها الأعمال الفاضلة والطّاعات الزّاكية والأخلاق النّبيلة والآداب الكاملة التي يتزيَّن ويتحلّى بها المؤمن.

وثمرات هذه الشّجرة كلُّ خيرٍ يفوز به العبد ويظفر به في دُنياهُ وأُخراه.

فهذا مثل عظيم ضربه الله سبحانه وتعالى لبَيان التوحيد والإيمان.

قال رحمه الله: " **وكذلك مثَّل الله كلمة التّوحيد بالشّجرة الطّيّبة التي تُؤتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها، فكذلك شجرةُ التّوحيد ثابتةٌ بقلب صاحبها** " أي المؤمن

"**معرفةً وتصديقًا وإيمانًا وإرادةً لِموجَبِها وتؤتي أُكُلها** " وهو منافعها " **كُلَّ وقتٍ من النِّيَّات الطّيّبة والأخلاق الزّاكِية والأعمال الصّالحة والهدي المستقيم ونَفْع صاحبها وانتفاع النّاس به، وهي صاعِدةٌ إلى السّماء لِإخلاص صاحبها وعلمِه ويقينه.** "

والشيخ رحمه الله بنى على هذا المثل رسالة من أعظم ما يكون نفعًا وفائدة أنصحُ كُلَّ مُسلم أن يقتَنِيَها، سمَّاها رحمه الله [**التوضيح والبيان لِشجرة الإيمان**]، وبدأ رحمه الله بهذه الآية الكريمة؛ { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ } ثم ذكر رحمه الله أنّ هذه الشّجرة لها أصولها – وبيَّنها في فصلٍ مُستقِلّ – ولها أمورٌ هي تُستَمَدُّ منها تزيدُها وتُقوّيها وتُنمّيها – وبيَّنها في فصلٍ مُستقِلّ – ولها ثِمارٌ وفوائدُ في الدُّنيا والآخرة لا تُعَدّ ولا تُحصى – وبيَّنها في فصلٍ مُستقِلّ –، وبنى الرّسالة على فصولٍ ثلاثة:

- الفصل الأول: في حقيقة الإيمان وحَدِّهِ وتفسيره.
- والفصل الثّاني: في الأمور التي يُستَمَدُّ منها الإيمان ويكون بها تقويتُه وتنميتُه.
- وفصلٌ ثالثٌ : بَيَّن فيه ثمار الإيمان وفوائده على أهله في الدنيا والآخرة.

فهي رسالة عظيمة النّفع كبيرة الفائدة.

وهذا المثل الذي ضُرِب في هذه الآية الكريمة جاء أيضًا توضيحٌ له في السُّنّة النّبويّة؛ الحديث المخرَّج في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبيَّ عليه الصّلاة والسّلام أُتِيَ يومًا بجُمَّار نخلة – وجُمَّار النّخلة لونُه أبيض وطعمُه حُلو، ويُسمى قلب النخلة – فأُتي عليه الصلاة والسّلام بجُمَّار نخلة فأكل منه، أكل منه ووضعهُ أمامه. ثم قال للصّحابة:

((أخبروني عن شجرة جعلها الله – سبحانه وتعالى – مثلاً للمؤمن لا يتحاتُ ورقها ولا ولا)) هكذا لفظ الحديث :أي ذكر أوصاف لها تدل على قوتها صلابتها تمكنها ثباتها رسوخها ولا ولا يعدد لهم صفات لهذه الشجرة أخبروني عنها وهو – عليه الصلاة والسلام – أكل أمامهم من جمار النخلة وسيلة تقريبية للجواب أمامهم أكل من جمار النخلة ووضعه أمامه ثم قال على إثر ذلك:((أخبروني عن شجرة جعلها الله مثل للمؤمن لا يتحات ورقها ولا ولا)) يعني ذكر صفات لها، قال ابن عمر فخاض الصحابة في شجر البوادي؛ لأن الأشجار التي في البوادي وفي الجبال معروفة بالقوة والتماسك والنبي – عليه الصلاة والسلام – سؤاله يدل على إن هذه الشجرة متماسكة قوية راسخة

فذهبت أذهانهم إلي أشجار البوادي وكلٌ بدأ يذكروا شجرة من أشجار البوادي فلما لم يعرفوا قال – عليه الصلاة والسلام – :((**هي النخلة**)) ،فيقول ابن عمر لما خرجنا – وكان أبو بكر وعمر حاضرين –يقول :لما خرجنا قلت لأبي: (والله إنه قد وقع في نفسي أنها النخلة. قال: فما منعك أن تقول ؟قال مكانك ومكان أبي بكر) انظر لأدب

صغار الصحابة قال:(مكانك ومكان أبي بكر) يعني منزلتك ومكانك جعلتني لا أتكلم مع أن الصغير إذا طرح سؤال والجواب حاضر عنده ما يملك نفسه كبير أو غير كبير ما يملك نفسه أصلًا رأسًا ربما قبل أن يتم السائل الجواب يقفز الصغير ويقول: الجواب كذا الصغير ما يملك نفسه، إذا كان الجواب حاضر عنده يقفز مباشرة ويجيب، لكن ابن عمر ملكه أدبه مع صغر سنه ملكه أدبه وبقي ساكتا إلى أن خرج حتي في آخر المجلس لم يجب، حتي في آخر المجلس لم يجب فضلًا عن أن يكون يقفز في أول السؤال ويجيب ، حتي آخر المجلس وانفضى الناس وأجاب النبي – عليه الصلاة والسلام – وهو متأدب وساكت ثم لما خرج يقول لوالده:((والله إنه وقع في نفسي أنها النخلة قال فما منعك أن نقول ذلك؟ قال: مكانك ومكان أبي بكر .قال:والله لئن كنت قلت ذلك أحب إليَّ من كذا وكذا لو إن كنت قلت ذلك أحب إليَّ من كذا وكذا))

فالنبي – عليه الصلاة والسلام – ذكر تحديدًا أنّ المراد بالشجرة هنا في الآية هي النخلة تحديدًا. دون غيرها من أشجار وهذا فيه دلالة على فضل النخل وبركته وأنه خير الأشجار وأفضلها، وأن النخل سيد الأشجار ، النخل سيد الأشجار وأفضلها بدليل أن الله – سبحانه وتعالى – جعله من بين الأشجار مثلاً للإيمان والتوحيد ولبيان مكانة الإيمان والتوحيد في قلب المؤمن ولهذا النخلة تحديدًا هي المرادة بقوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] والله – عز وجل – وصف النخلة في هذه الآية بأنها شجرة طيب وأن لها أصلٌ وأن لها فروع ولها ثمار وأنَّ ثمار النخلة يستفاد منه طول العام ولهذا تري الديار التي فيها النخيل يأكلوا أهلها من ثمرها طول العام

أما الذي عنده شجرة التفاح أو شجرة البرتقال أو غير ذلك من الأشجار يأكلوا منها وقت خروج هذه الثمار ثم بعد ذلك لا يستفيد منها دعك من زماننا هذا الذي وجدت فيه الثلاجات لكن كان يستفاد منها في وقتها أما بالنسبة لأهل النخيل فإنهم يستفيدون منها في وقتها بلحا ورطبًا ويستفيدون منها على امتداد العام تمرا يستفيدون منها فهي يستفاد من ثمرها على مدار السنة ، ولهذا جعل الله – سبحانه وتعالى – النخلة تحديدًا مثلاً للمؤمن ، ولما جعلها الله – سبحانه وتعالى – مثلا للمؤمن ذكر في الآية أربعة أوجه من الشبه بين المؤمن وبين النخلة :

- ١ – قال : ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] هذا الشبه الأول :

" الطيب " النخلة شجرة طيبة في منظرها، في مخبرها، في ثمرها ، في الإستفادة من كل جزء من أجزائها ، ولهذا جاء في لفظ آخر للحديث قال : ((إن من الشجر لما بركته كبركة المؤمن ما أخذت منها من شيء نفعك))

ولذلك جاء لفظ آخر في الحديث : "مَثَلُ المؤمِنِ مَثَلُ النَّخْلةِ ما أخَذْتَ منها من شَيْءٍ نَفَعَك"؛

النخلة تمتاز بأن كل جزء منها مفيد، وأهل النخيل يعرفون ذلك، كل جزء من النخلة مفيد في مجال معين، ولهذا يستفيد منها فوائد عظيمة جدا من ثمارها من خوصها من عسبها من كربها من أصولها إلى آخر ذلك...

النخلة كل منه مستفاد منه، ليس في النخلة جزء يقال: هذا غير منتفع به ، ما أخذت منه- يقول -عليه الصلاة والسلام-: منها من شيء نفعك كل شيء منها مفيد فقال:﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصلُها ثابِتٌ وَفَرعُها فِي السَّماءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]

- ٢- النخلة لها أصل ثابت :يعني ضارب ومتمكن وماسك في الأرض

وأيضا المؤمن لإيمانه أصل ثابت ومكانه القلب وأصول الإيمان ستة ومكانها القلب ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) هذه الأمور الستة للإيمان كالأصول للأشجار وكالأعمدة للبنيان ،كما أن الشجرة لا تقوم على أصلها والبناء لا يقوم إلا على عماده فكذلك الإيمان لا يقوم إلا على هذه الأركان ، ولهذا قال الله في آية من القرآن الكريم : ﴿ وَمَن يَكفُر بِالإيمانِ فَقَد حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرينَ﴾ [المائدة: ٥] إذا انتفى أصل من هذه الأصول الإيمان كله ينهدم ولا يستفاد لا من طاعة ولا من خلق ولا من معاملة ولا غير ذلك ولهذا قال الله – سبحانه وتعالى – :﴿مَثَلُ الَّذينَ كَفَروا بِرَبِّهِم أَعمالُهُم كَرَمادٍ اشتَدَّت بِهِ الرّيحُ في يَومٍ عاصِفٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨]

أعمالهم كرماد : الأعمال الكثيرة التي يأتي بها الكافر شأنها كالرماد ما يستفاد منه رماد واشتدت به الريح أي فائدة تحصل منه

﴿وَقَدِمنا إِلى ما عَمِلوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلناهُ هَباءً مَنثورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]

فإذن الإيمان له أصل قال : ﴿أَصلُها ثابِتٌ وَفَرعُها فِي السَّماءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]

٣- أيضا النخلة لها فرع وممتد مرتفع في السماء ، وأيضا شجرة الإيمان لها فروع وفروعها هي الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة التي يقوم بها المؤمن

٤- والوجه الشبه الرابع قال : ﴿تُؤتِي أُكُلَها كُلَّ حينٍ﴾ [إبراهيم: ٢٥]

أكلها أي: ثمارها وجناها وهكذا الإيمان ثماره على صاحبه في الدنيا والآخرة ينالها كل وقت في دنياه وأخراه وكل خير يحصله العبد وكل شر يدفع عنه فهو ثمرة من ثمار الإيمان ونتيجة من نتائجه .

فهذي أربعة وجوه شبه بين المؤمن والنخلة،

وأهل العلم في كتب التفسير في شرحهم لهذه الآية وكذلك في كتب الحديث في شرحهم لهذا الحديث حديث ابن عمر اجتهدوا في جمع أوجه الشبه بين المؤمن وبين النخلة وذكروا وجوه كثيرة وجمعت ماقاله أهل العلم في كتب التفسير وكتب الحديث في رسالة طبعت بعنوان ((**مماثلة المؤمن للنخلة**)) فكانت أوجه الشبه التي ذكرها أهل العلم بين المؤمن وبين النخلة تقارب العشرين وجها وكلها أوجه صحيحة تراها واضحة التماثل بين المؤمن وبين النخلة، ولهذا المؤمن يستفيد من هذا المثل، والنخلة هذه الشجرة الطيبة هي في الحقيقة أمرٌ مشاهدٌ محسوس أمام عينك تراه يوضح لك الإيمان.

أذكر مرة كنا في مجلس في مكة في فناء البيت كنت ألقي درسًا على أناسٍ من بلد ليس فيه نخيل ولا يعرفون النخيل ولا رأوا النخيل فكنت أتحدث حول هذا الموضوع فقلت لهم: هل رأيتم النخلة مرة؟ وبيني وبينهم مترجم فقالوا: لا ما نعرفها قلت: ما رأيتموها أبدا، فقالوا: لا أبدا ما رأينها قلت: أبدًا كلكم رأيتم النخلة، وكان وأنا ألقي الكلمة إلى جواري نخلة في الفناء الذي نحن جالسين كان إلى جواري نخلة؛ مثلما كانوا يرونني يرون النخلة كانت إلى جنبي فقلت: أبدًا كلكم رأيتموها قالوا: أبدا ما رأينها قلت: أبدًا أنا متأكد كلكم رأيتم النخلة هذه هي النخلة، ثمَّ قلت لهم: هذه النخلة التي إلى جواري مثلما ترون هذه نخلة مريضة ضعيفة؛ لو تذهبون إلى البساتين التي يعتنى فيها بالنخيل ترون فرقًا شاسعًا بينها وبين هذه النخلة، وبدأت من خلال هذا المعنى أوضح لهم أنّ النخيل كما أنّه تتفاوت بحسب أرضه، وحسب مكانه، وحسب العناية به قوةً وضعفًا وثمرةً؛ فكذلك أهل الإيمان يتفاوتون الإيمان يزيد وينقص، ويقوى ويضعف، وأهله ليسوا فيه سواء، وإذا دخل الإنسان إلى بستان فيه نخيل يجد النخيل متفاوت ليس على درجةٍ واحدة، يسقى بماء واحد ولكن يتفاوت في الثمار وفي الأكل تفاوتًا عظيمًا.

فالشاهد أن هذا مثل عظيم ورائع ونافع وكان السلف –رحمهم الله– يعتنون به .

جاء في بعض السنن في سنن الترمذي أن أنس بن مالك أُتيَّ بطبق عليه رطب فقال: (يا أبا العالية كل من ثمرة الشجرة التي جعلها الله مثلاً للمؤمن)؛فيأكلون الرطب ويذكرون هذا المثل العظيم النافع الذي جعله الله – سبحانه وتعالى –

أمامنا مشاهدًا محسوسًا يوضح لنا الإيمان، وحقيقة الإيمان، وحال أهل الإيمان مع الإيمان، وتفاوتهم فيه من خلال هذا المثل الواضح الذي يعرفه كل أحد.

فهذا مثل من أمثال القرآن في توضيح الإيمان، بعده ضرب الله – سبحانه وتعالى – مثلاً يوضح فيه حال الكفر والكافرين قال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجتُثَّت مِن فَوقِ الأَرضِ ما لَها مِن قَرارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]؛

هذا مثل شجرة الكفر، قال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الكفر: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجتُثَّت مِن فَوقِ الأَرضِ﴾

قيل المراد بها شجرة الحنظل، والحنظل ليس لها عروق راسخة؛ إذا مر الإنسان بها وضربها بقدمه انقشعت على طول ؛ليس لها عروق راسخة، وثمارها حنظل مر المذاق لا يطاق أكله، ولا يرضى الإنسان أن يقترب منه، وهو مأذي للإنسان إذا وطئه بقدمه آذاه فضلًا عن أن يأكله، والماشية لا تقربه شجر الحنظل ولا تدنوا منه؛ مع أنَّه شجر ولونه أخضر لكنها تبتعد عنه؛ لأنّها فطرها الله – سبحانه وتعالى – على المعرفة بمضرتها لها يأذي أذى شديدًا.

قال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجتُثَّت مِن فَوقِ الأَرضِ ما لَها مِن قَرارٍ ۝ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا بِالقَولِ الثّابِتِ فِي الحَياةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظّالِمينَ وَيَفعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٦-٢٧]

والله –تعالى– أعلم وصلَّى الله وسلَّم على رسول الله.